

العوامة: قراءة في الاقتصاد-عالم الرأسمالي

سفيان بطاطا¹

ملخص:

تعتبر العوامة الراهنة مرحلة من مراحل تطوّر النظام الرأسمالي، نظام الحرية الاقتصادية - دعه يعمل دعه يمر - . إنّ الهدف من هذه الدراسة هو محاول قراءة العوامة الراهنة كنسق اقتصادي اجتماعي، من خلال تطوّر النسق العالمي والنسق الرأسمالي عبر الزمان والمكان، وهذا باعتماد دراسة وتحليل هيكلية المجال المكاني وتطوّره عبر الزمن. كما يرمي هذا البحث لاستجلاء التغيّرات التي مسّت النسق. وتبرّر هذه الأخيرة أحيّة أو جوهر تسمية هذه المرحلة بالعوامة. وتوصّلنا من خلال هذه الدراسة إلى أنّ العوامة هي ترجمة لتغيّرات هيكلية في النسق الاقتصادي الرأسمالي وليس مجرد اتّساع المجال المكاني وتكثيف العلاقات الداخلية للنسق الرأسمالي. **المصطلحات المفتاحية: العوامة، النسق العالمي، الاقتصاد-عالم، النسق-عالم، الرأسمالية.**

Résumé :

La mondialisation actuelle n'est qu'une étape du développement du système capitaliste, le système de liberté économique - laisser faire laisser passer.

Cette étude est une tentative de lecture de la mondialisation socio-économique actuel comme étant un système, à travers l'étude de l'évolution de système-monde capitaliste dans le temps et dans l'espace en analysant la structure du domaine spatial et son évolution au fil du temps. Cette recherche vise également à clarifier les changements qui ont touché le système. Ces derniers justifient l'éligibilité ou l'essence de nommer cette étape par la mondialisation.

On a constaté dans cette étude que la mondialisation est une traduction des changements structurels dans le modèle économique capitaliste et pas seulement une étape caractérisée par l'amplification spatiale et l'intensification des relations internes .

mots clés: la mondialisation, le système mondiale, l'économie-monde, le système -monde, le capitalisme.

تمهيد:

أسالت العوامة من الخبر كثيرا، وتطرق إليها من مختلف الزوايا، وفي مختلف المجالات، إلا أننا أردنا أن نحاول مقاربتها من منظور أغفل الباحثون التطرق إليه، على الأقل بنفس وتيرة تطرقهم للعوامة على سبيل الوصف وذكر مؤسّساتها، ومحاوله الوقوف على أهمّ خصائصها. ولذلك حاولنا مقاربتها مقارنة نسقية والاستفادة من خصائص النسق المنهجية في قراءتها. يعتبر النسق من الأدوات المنهجية الأكثر استعمالا في تمثيل وتنميط وتنظير ودراسة العلاقات الدولية. ويعرّف على أنه مجموعة وحدات تربطها علاقات متبادلة.² كما يسلط الضوء على الكل أكثر من تسليطه على الجزء، وبالتالي فنظرتة شمولية أكثر منها جزئية.

تكون دراسة النسق الاجتماعي الاقتصادي على مستويين:³

¹ أستاذ مساعد "أ"، جامعة محمد بوقرة "بومرداس"، batata_sofiane@yahoo.fr

² - Durand Daniel, *La systématique*(Que sais-je), PUF, Paris, 1979,p:8

³ - نبيل رمزي، النظام الاقتصادي من وجهة سوسيو-تاريخية، دار الفكر الجامعي، بيروت، 2000، ص:5.

- مستوى الديناميكيات الداخلية للنسق، بمعنى دراسة العلاقات التي تربط مكونات النسق التي تكون مع بعضها البعض شكلا ديناميكيا متوازنا نسبيا، وهو النسق موضوع البحث.
 - مستوى الديناميكيات الخارجية للنسق، أي دراسة علاقاته الجدلية مع غيره من الأنساق التي تكون شكلا ديناميكيا متوازنا نسبيا يتمثل في البناء العالمي.
- يعتبر النسق من عناصر التحليل البنوي، ولقد تطوّر التحليل البنوي كمنهج من مناهج التحليل في علم الاقتصاد، نتيجة إسهامات المنهجين التاريخي والماركسي.

يهدف المنهج التاريخي إلى وصف الوقائع في إطارها الزمني. في حين يقوم المنهج الماركسي بتفسير الوقائع من خلال المراحل التاريخية. بمنطق نسقي، وهذا بالتأكيد على عموم ظاهرة الرأسمالية وعلى العلاقات الموجودة بين مختلف العناصر والمكونات على الصعيد العالمي. ولا يتوقف هذا المنهج عند الوصف بل يسعى إلى تفسير التغير والتنبؤ به، انطلاقا من متغيرات متداخلة: اجتماعية، اقتصادية، تاريخية، جغرافية وحتى نفسية.

واستعمل هذه المقاربة العديد من المفكرين الماركسيين¹، وأنصار مدرسة التبعية² كسمير أمين³، وبالأخص مدرسة الحوليات⁴ لـ "برودل"⁵ Braudel و"والرشتين"⁶ Wallerstein التي سنتطرق إليها لاحقا، بدون أن نهمّل إسهامات "ميشل بو" Michel beaud التي قد تصب في السياق نفسه.

إن استعمال هذه المقاربة في محاولة قراءة العولمة يحيلنا إلى البحث عن التغير الذي طرأ على النسق الاقتصادي العالمي في عصر العولمة. وهذا ما يجرّنا إلى التساؤل عن إمكانية اعتبار العولمة مجرد انفتاح أكثر في العلاقات الاقتصادية وتحكّم أكبر في المجال والزمان؛ أو أنّها مرحلة تشوّهها تغير في هيكلية الاقتصاد-عالم الرأسمالي وفي علاقاته.

حاولنا الإجابة على هذه التساؤلات من خلال أربعة أجزاء ففي الجزء الأول، حاولنا من خلاله التطرّق لمختلف أشكال الأنساق التي مرّ بها الاقتصاد العالمي، أو بعبارة أخرى قراءة نسقية للتاريخ الاقتصادي العالمي؛ ثمّ حاولنا من خلال

¹ - يمكن ذكر أهم أعلام الماركسية: كارل ماركس 1818-1883، فريدريك إنجلز 1820-1895، فلاديمير لينين 1870-1924، روزا لوكسمبورغ 1871-1919، أنطونيو غرامشي 1891-1937، أرنست مندل 1923-1995.

² - نشأت مدرسة التبعية في أميركا اللاتينية في عقد الستينيات من القرن الماضي، وانتشرت فيما بعد إلى كل من آسيا وإفريقيا. حاولت تفسير واقع التخلف الذي تعاني منه معظم بلدان هذه القارات، فركزت على العامل الخارجي كعامل أساسي، أو وحيد في تخلف بلدان القارات الثلاث، وأفادت بأن العلاقات القائمة بين هذه البلدان والبلدان الغربية المتقدمة هي في الوقت نفسه سر تخلف البلدان الأولى وتطور البلدان الثانية، وهذه هي الأطروحة الأساسية لمدرسة التبعية.

³ - مفكر واقتصادي مصري (1931-)، من أهم أعلام مدرسة التبعية قدم في كتبه: التراكم على الصعيد العالمي (1973)، التبادل غير المتكافئ وقانون القيمة (1974)، التطور اللامتكافئ (1974)، محاولة لتحديد قراءة المادية التاريخية وأنماط الإنتاج عبر فكرة العلاقة بين المركز والمحيط في النسق الرأسمالي.

⁴ - l'école des analles.

⁵ - مؤرّخ فرنسي (1902-1985)، حاول ربط التاريخ بمختلف العلوم الأخرى، من بينها علم الاقتصاد، وكان من نتائج هذه المقاربة دراسة تطوّر النظام الرأسمالي من خلال تطوّر الاقتصاد-عالم الرأسمالي، فهو بذلك مشتق مصطلح الاقتصاد-عالم كما ذكرنا أعلاه، وتصنّف هذه النظرة إلى العلاقات الدولية كمدرسة ماركسية حديثة.

⁶ - اجتماعي أمريكي (1930-)، نظّر هو الآخر لتطوّر النظام الرأسمالي عن طريق النسق -عالم والاقتصاد- عالم في نفس الفترة مع برودل (بداية السبعينات)، إلاّ أنّه يعتبر الاقتصاد-عالم الرأسمالي الاقتصاد-عالم الوحيد الذي وجد على عكس برودل.

الجزء الثاني استنباط خصائص ومميزات النسق الرأسمالي، واعتمدنا على إسهامات "برودل" و"الريشتاين" لتحقيق ذلك؛ وفي الجزء الثالث، حاولنا عن طريقه سرد مراحل تطوّر الاقتصاد-عالم الأوربي، لمحاولة استنباط أهم خصائصه الهيكلية؛ أمّا في الجزء الرابع والأخير، حاولنا البحث عن خصائص النسق الرأسمالي في النسق المعولم، لمعرفة المتغيّر منها عن الثابت، ومن ثمّ محاولة قراءة العولمة قراءة نسقية.

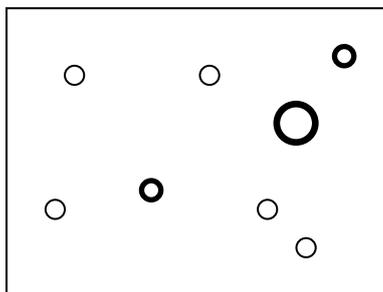
1- التطوّر المرحلي للنسق العالمي

لقد حاول "جاك ليفي Jacques Lévy" تصوّر مراحل تطوّر النسق العالمي في أربعة أنساق مستقلة عن بعضها البعض، شغل كل واحد منها زمنا تاريخيا محدّدا، وهيكله محدّدة تربطها علاقات محدّدة هي الأخرى، فميّز بين نسق عالم ي كمجموعة عوالم، ونسق عالمي كحقل قوى، ونسق عالمي مهيكلي، ونسق عالمي في شكل مجتمع-عالم:¹

1-1 النسق العالمي كمجموعة عوالم:

يتكون العالم وفق هذا النسق، من مجموعات أشخاص (تجمعات، مجتمعات)، منفصلة ومتباعدة، بحكم اللاتّحكم في المكان، فالمسافة أو البعد بين المجتمعات هي ما لا نهاية. وعلى هذا إذا أردنا تحديد هذه المرحلة تحديدا زمنيا تاريخيا، يمكن القول أنّ هذا هو حال العالم منذ خلق الإنسان وهو حاله في المجتمعات البدائية من النظام المعاشي. وبالتالي يمكن القول أنّ هذا الشكل من النسق كان سائدا حتّى القرن الخامس ميلادي، وهو بذلك السمة الهيكلية الغالبة لعالم العصر القديم على غرار الحضارات البابلية، والآشورية، والفرعونية، والصينية في آسيا وإفريقيا. وحتّى في أمريكا أين نجد حضارات الأزتيك والإنكا وغيرها من الحضارات القديمة التي كانت مجتمعات وحضارات تقريبا منعزلة. ويمكن تمثيل النسق كما يلي:

شكل رقم (1): النسق العالمي في شكل مجموعة عوالم



المصدر: Lévy Jacques, « Espace-monde, mode d'emploi », op cit, p : 58.

1-2 النسق العالمي كحقل قوى:

يعتبر هذا النسق نسقا جيوسياسيا، يستعمل في دراسات وتحليل العلاقات الدولية، يعتبر الدولة - كهيكل جغرافي قوي تمكّن من حشد وحصر وضم موارد المجتمع وتدعيم تقارب واجتماع مجموعات الأفراد والأشخاص. - أساس هذا النسق.

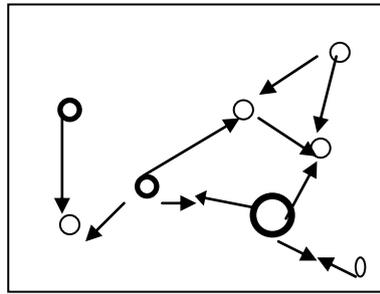
¹ - Lévy Jacques, *L'invention du monde*, in Presses de Sciences Po | Hors collection, 2008, pages : 40 – 61. Voir aussi : Lévy Jacques, *Espace-monde, mode d'emploi*, in Bidet Jacques et Texier Jacques (direction), *le nouveau système monde*, PUF, Paris , 1994, pp : 57-67.

تسعى كل دولة في ظلّ هذا النسق لإثراء قوتها بالحفاظ أو توسيع حيزها الجغرافي الذي يعتبر بمثابة مخزن للموارد البشرية والمادية، عن طريق مواجهة مثيلاتها من الدول. الأمر الذي يجعل من القوة العسكرية معيارا عاكسا لقوّة الدولة. كما تعتبر الحروب والعنف ميزة لهذا النسق. ويمكن تحديد زمن هذا الأخير في أوروبا من عصر إمبراطوريات الدولة العبودية¹ كأوّل شكل من أشكال الدولة إلى العصور الوسطى. ولقد ساهم العالم الإسلامي منذ ظهوره في بناء هذا النسق، إذ تمثّل في الخلافة الإسلامية منذ بدايتها في عهد رسول الله محمد -p- وحتىّ ظهور الإمبراطورية العثمانية مروراً بالخلافة الراشدة حتىّ ما بعد الخلافة العباسية، كما تعتبر الإمبراطورية الصينية أو بالأحرى العالم الصيني والعالم الهندي، وكذلك العالم الفارسي عوالم من هذا النسق.

تخلّل النسق-عالم علاقات حربية بين مختلف العوالم، من بينها الحروب التي جمعت العالم الإسلامي ومختلف العوالم الأخرى عرفت بالفتوحات الإسلامية، بالإضافة إلى الحروب التي شنتها عليه العالم الأوربي، والتي سمّيت بالحروب الصليبية². هذا وكما تخلّل النسق علاقات تجارية بين العوالم كانت هامشية وكانت أشبه بالسطو أو اللصوصية.³ تحكّم العالم الإسلامي فيها زمنا طويلا، بفعل امتلاكه جيشا قويا يغذّيه الوازع الديني من جهة، وتمركز جغرافي وربّما مهارة تجارية جعلته يلعب دور الوساطة التجارية بين الشرق المتمثّل في العالم الصيني والهندي وبين العالم الأوربي الغربي- طريق الحرير.⁴ كما لا يفوتنا في هذه النقطة، ذكر العالم التتري، الذي وتحت قيادة "جينكيز خان"-ملك الملوك، أو ملك العالم، أو قاهر العالم- خاض معارك شرسة كوّن من خلالها إمبراطورية شاسعة، وأسقط الدولة العباسية سنة 1258م. قبل أن تسقط هي الأخرى في معركة عين جالوت أمام مملكة المماليك سنة 1260م.

ويمكن تمثيل هذا النسق في الشكل التالي.

الشكل رقم (2): النسق العالمي كحقل قوى



المصدر: Lévy Jacques, *Espace-monde, mode d'emploi*, op cit, p : 58.

3-1 نسق عالمي مهيكّل :

¹ - يقصد بها حضارات وإمبراطوريات العالم القديم، التي استعملت العبيد في تشييد المعالم والآثار فضلا عن كل النشاطات التي تستوجب جهدا عضليا، وكانت العبودية متأصلة في الشعوب القديمة.

² - تسمّى أيضا بالحروب المسيحية، وهي حروب شنتها العالم المسيحي على العالم الإسلامي من أجل استرجاع الأراضي التي فتحها المسلمون، خاصة الأندلس وبلاد الشام وفلسطين من أجل السيطرة على المقدّسات المسيحية وكذا الأرض التي عاش ودعا فيها عيسى عليه السلام؛ وبدأت هذه الحروب في أواخر القرن الحادي عشر واستمرّت حتى أواخر القرن الثالث عشر ميلادي.

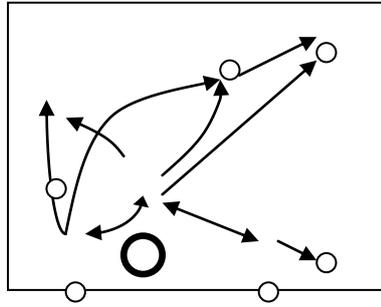
³ - Adda Jacques, *la mondialisation de l'économie*, t1.genèse, 3^e édition, la découverte, 1997, p:19.

⁴ - بعد اكتشاف العالم الأمريكي الجديد ومن ثمّة الطريق إلى الشرق من الغرب. وبعبارة أخرى تحكّم العالم الأوربي في المجال العالمي. حيث تقلّصت وبشكل واضح وساطة العالم الإسلامي لصالح أوروبا.

يعكس هذا النسق علاقة متواجدة منذ خمسة قرون (1500 م)، في ظلّ عالم وحدّته التدفّقات التجارية الأوربية. وهذا بعد التحكّم في المجال العالمي لجعله شبكة تبادل عالمية. غير أنّ خصوصية هذا النسق لا يتعلق بمجرّد تبادل السلع، بل يتخلّله علاقات أشمل من أن تكون علاقات تجارية مجردة، بل وحتى اقتصادية محضّة، فرضتها طبيعة هيكله هذا النسق. إذ يعرف هذا النسق مركزاً مستغلاً ومحيطاً مستغلاً¹، تربطهما علاقة استغلال وهيمنة تجعل المجتمع العالمي كله موجّهاً إلى ما تراه القوى المهيمنة تطورا ونموًا.

وهكذا نكون قد ابتعدنا في ظلّ هذا النسق عن العلاقات القاسية بفعل الحروب التي تجمع بين الدول، ليصبح الأمر يتعلق بشبكة نقاط وأماكن قابلة للاستغلال بفعل التطور النسبي لوسائل النقل والتحكّم النسبي في المكان. كما أن هدف عناصر النسق - الدول - الفاعل لم يعد يكمن في مجرد احتكارها وامتلاكها الموارد، وإنما في تنشيطها وتحريكها واستغلالها. ويمكن تمثيل هذا النسق على الشكل التالي:

الشكل رقم (3): نسق عالمي مهيكّل



المصدر: Jacques Lévy, *Espace-monde, mode d'emploi*, op cit, p : 58.

ساهمت الهيكل الجديدة للعالم الأوربي في ظلّ الثورة التجارية والثورة الصناعية، بظهور الدولة القومية واكتشاف العالم الجديد أو بالأحرى استعماره، في جعل العالم الأوربي متفوقاً على العوالم الأخرى، ليجعلها إليه في شكل علاقات استعمارية تخدّمه.²

ونظراً كلّ من المؤرخ "برودل" والاجتماعي "والرشتين" تطوّر النسق الاقتصادي الرأسمالي في هذا النوع أو الشكل من الأنساق مستعملين مصطلح الاقتصاد-عالم، وعُرفت مدرستهما بالمدرسة الحولية التي سنتطرق لإسهامها لاحقاً.

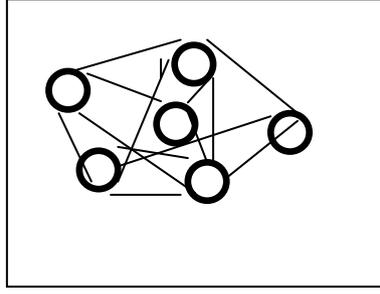
1-4 النسق العالمي كمجتمع:

على أساس التنسيق الناجح والحكم للأنساق الثلاثة السابقة، يغدو من الممكن التكلّم عن نسق رابع متجسّد في المجتمع العالمي، وهو مجتمع أسهم في انسجامه كثافة المبادلات والتحكّم في المكان والزمان بفعل التطوّرات الصناعية والتكنولوجية المواصلاتية والاتصالية. أسهمت هذه التطوّرات في اختزال الزمان والمكان لتصبح رؤية الشكل رقم (4):

المجتمع العالمي

¹ - تنسب هذه النظرية إلى سمير أمين على إثر مجيء العالم الثالث كمصطلح و كواقع إلى الساحة الدولية، واستناداً إلى مفهومي "المركز" و"المحيط" يقسم العالم إلى بلدان المركز الرأسمالية، ويعني بذلك الدول الغربية المصنعة من ناحية، و من ناحية أخرى دول المحيط التي تضم عدداً ضخماً من دول العالم الثالث المتخلفة. و وفق هذه النظرية تتلخص العلاقات الدولية في علاقات التبعية و السيطرة بين البلدان المتقدمة في الشمال و البلدان المتخلفة في الجنوب .

² - أنظر الجزء الرابع من المقال.



المصدر: Jacques Lévy, *Espace-monde, mode d'emploi*, op cit, p : 58.

هذا العالم ومعالجته عالمية هي الأخرى، تماما كمشكلاته. ولم يعد يصلح لحكم هذا المجتمع سوى هيئات في مستوى كبر حجمه، هيئات دولية وعالمية.¹ يمكن تمثيل هذا النسق في الشكل (4).

2- الاقتصاد-عالم² Economie-monde والنسق-عالم³ Système-monde:

حاولت المدرسة الحولية (برودل ووالريشتين) استيعاب الحقيقة الكاملة "للرأسمالية" باعتبارها نسقا تاريخيا لتصوره في نهاية المطاف نسقا عالميا، باستعمال عناصر التحليل الماركسي.

إنّ استشراف نسق-عالم يتضح من خلال ثلاث أساسيات:³

- أولا تحديد المجال الفضائي أو بالأحرى المكاني، ويعتبر النسق-عالم وحدة التحليل أو مجال التعريف الواجب اعتماده لدراسة السلوك الاجتماعي. بمعناه العام.
- ثانيا تحديد المجال التوقيتي أو الزمني، وهو في العادة "زمن طويل المدى". إن الأنساق-عالم أنساق تاريخية تأخذ شكل شبكة مهيكلية ومندمجة فيما بينها، ومستقلة عمّن سواها بآليات داخلية ذات طبيعة اقتصادية وسياسية، وتتحوّل وتتطور في زمن بعيد. وقد لا يمكن تلخيص التطوّرات التي قد تصيب الاقتصاد-عالم في الزمن القصير.
- ثالثا تحليلي، في إطار نظرة منسجمة ومفصلة، يتم وصف الاقتصاد-عالم كوحدة اقتصادية نسقية متحرّرة من كيان سياسي موحد، ونسعى من خلالها إلى إعطاء تحليل وشرح وتفصيل هيكلية وبنوي، وتستعمل للتنبؤ بالتغيّرات والتطوّرات التي قد تطرأ مستقبلا.

على عكس "برودل" مشتق مصطلح الاقتصاد-عالم، والذي يرى أنّ هناك العديد من الاقتصادات-عالم المتعايشة عبر التاريخ، والتي من بينها نجد الاقتصاد-عالم الإسلامي الذي ظلّ متفوّقا ومهيمنًا حتى قرابة القرن الخامس عشر،⁴ فعند "والريشتين" مشتق مصطلح النسق-عالم الذي بحسب رأيه يأخذ شكل إمبراطورية-عالم أو اقتصاد-عالم:⁵

- إمبراطورية-عالم، وذلك في حالة كون هذا النظام في كنف سلطة سياسية واحدة تحكمه.

¹ - هذا دون أن ننفي وجود مجتمعات ذات خصوصية أو دولا وطنية في المجتمع العالمي، تماما كوجود مجتمعات ذات خصوصية وإدارات جهوية في الدول الوطنية.

² - ترجم مصطفى ماهر هذا المصطلح بـ "عالم اقتصادي"؛ إلّا أنّنا ارتأينا ترجمته على النحو لأنّ عالم اقتصادي هي ترجمة أصح لـ: monde économique وليس هو المقصود، أنظر: فرنارد برودل، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، ترجمة مصطفى ماهر، الطبعة الأولى، الجزء الثالث، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1995، ص: 16.

³ - Herrera Rémy, *les théories du système mondial capitaliste*. working paper

⁴ - Braudel Fernand, *civilisation matérielle, économie et capitalisme, XV^e-XVIII^e siècle T3 : le temps du monde*, 2^{eme} ed, Paris : Armand Colin, 1980, pp : 12-32.

⁵ - Wallerstein Immanuel, *le système monde du XV^e siècle à nos jours, T1, capitalisme et économie-monde 1450.1640*, Paris : Flammarion, 1980, pp : 311-325.

- واقتصاد-عالم، في حالة العكس، أي عدم وجود سلطة مركزية واحدة وإنما سلطات سياسية متميزة. وعلى هذا، يرى والرشتين أنه لم يوجد عبر التاريخ سوى النسق-عالم الأوربي النسق الوحيد الذي يمكن أن ندعوه اقتصاد-عالم. باعتباره لم يكن تحت كنف سلطة سياسية واحدة وذلك ابتداء من بداية القرن السادس عشر، قبيل أو أثناء النهضة الصناعية. وبعد استتباب النظام في هذا النسق، أخذ مجاله المكاني بالتوسّع بالاستيلاء و/أو دمج ما استطاع من أوربا ومن العوالم المحاورة، إلى أن غطّى كل العالم تقريبا. وبالتالي يكون الاقتصاد-عالم الأوربي الاقتصاد-عالم الوحيد، وهو النسق-عالم الوحيد أيضا الذي أصبح نسق-عالم عالمي، أو اقتصاد-عالم عالمي. وتضاف هذه الخاصية إلى الخصائص المستوحاة من النظام أو نمط الإنتاج الرأسمالي، والمتمثلة عموما في الاستمرارية الديناميكية في تراكم رأس المال.¹

إنّ كل الاقتصادات-عوالم التي سبقت كانت غير متوازنة، إذ كان مآلها التحول إلى إمبراطورية-عالم في أحسن الأحوال إذا لم تتلاشى. ويبقى الاقتصاد-عالم الرأسمالي الاقتصاد-عالم الوحيد الذي تمكّن من الصمود والعيش لمدة خمسة قرون إلى أن أصبح اقتصاد-عالم عالمي.

ويؤكد "الريشتين" في هيكله الاقتصاد-عالم على:²

*الضعف النسبي لدول المحيط كخاصية رئيسة للمحيط، ضعفٌ يمكن أن يتحوّل إلى غياب تام أو شبه تام لهذه الدول في حالة استعمارها أو كونها تحت وصاية.

*الأهمية الهيكلية للمناطق الوسيطة في الاقتصاد-عالم، إذ تكون مسرحا لالتقاء عدّة عناصر حيوية.

* يعرف الاقتصاد-عالم تقسيم عمل على مجال واسع، تقسيما ليس وظيفيا فحسب وإنما جغرافيا أيضا، في ظل تنظيم اجتماعي يمكن المركز من استغلال المحيط للحصول بذلك على جزء أكبر من فائض القيمة. ويسهم تمايز قوى التنظيم السياسية المختلفة -والمتمثلة عادة في الدول القومية- في هيكله هذا النسق، وفي فرض تقسيم العمل فيه، وكذلك في انتشاره وتوسيع مجاله الجغرافي. ولهذا ففي إطار اقتصاد-عالم ما، تتجلى هيكله دولية قوية نسبيا في المناطق المركزية وضعيفة نسبيا في المناطق الهامشية.

3- مراحل عولمة الاقتصاد-عالم الرأسمالي الأوربي، قراءة في تاريخ الاقتصاد-عالم الرأسمالي:

ظهر الاقتصاد-عالم الرأسمالي في أعقاب النظام الإقطاعي في القرن الخامس عشر، بعدما تكوّنت في جيوب هذا الأخير مدن-دول، استقلّت اقتصاديا، وسياسيا، وإداريا عن الحاكم الإقطاعي. حيث كان هذا النشاط الاقتصادي أو بالأحرى التجاري القوّة التي مكّنت الحرفيين من استقلالهم عن الإقطاعيين ورجال الكنيسة، الأمر الذي جعل من هذه المدن-دول المراكز التجارية الاقتصادية في أوربا.

تمثّل العالم الإسلامي في هذه الفترة في الدولة العباسية، ثمّ في مملكة المماليك، وبعض المملكات الإسلامية المتعاقبة كالدولة السلجوقية والأيوبية، وآخرها الإمبراطورية العثمانية. احتكر العالم الإسلامي فيها التجارة العالمية عن طريق سيطرته على وساطة تجارة الحرير والتوابل-بحكم الوساطة الجغرافية بين الشرق والغرب، وبحكم القوّة العسكرية التي كان يتمتع بها-، فكان يجني من ورائها أرباحا طائلة من خلال تزويد أوربا بمنتجات العالم الشرقي.

¹ - Herrera Rémy, op cit.

² - Wallerstein Immanuel, op cit,pp : 311-325.

وبالتالي كان العالم الإسلامي في هذه المرحلة عالماً مسيطرًا تجاريًا، وحضاريًا، وحتى عسكريًا، بعدما أسقطت الإمبراطوريات التي كانت تعتبر من العالم القديم والتي كانت تمثل مجد وحضارة العالم الأوربي، الإمبراطورية الرومانية؛ وأيضاً الإمبراطورية الفارسية، وأخضعت العالم الهندي والصيني بفعل الفتوحات الإسلامية.

بعد اكتشاف أوروبا العالم الجديد "أمريكا" سنة 1492م، وكذلك الطريق البحري للوصول إلى العالم الشرقي عن طريق الالتفاف حول إفريقيا سنة 1498م، والالتفاف حول العالم سنة 1521م، تحكّمت في المجال العالمي وبدأت تتكوّن أولّ ملامح الاقتصاد-عالم الأوربي التجاري¹، وأخذت هيكلته الأساسية والمركزية تأخذ شكل الإمبراطوريات البحرية التجارية كالبرتغال، وإسبانيا، وهولندا. كما كان من نتائج هذه الاكتشافات ظهور حركة الاستعمار التي تمثل أحد أهم علاقات النسق في هذه المرحلة، إذ استعمرت القارة الأمريكية وإفريقيا وبعضاً من آسيا واستغلت استغلالاً منجمياً من أجل الحصول على الذهب والفضة، التي تم تحويل كميات كبيرة منها إلى أوروبا في ظل فكر المدرسة التجارية. كما استغلت أيضاً استغلالاً زراعياً بتكوين إقطاعيات فلاحية لإنتاج مختلف المنتجات، وبخاصة تلك التي لم تكن معروفة في أوروبا. كما اعتبرت المستعمرات الإفريقية مخزناً للعبيد الذي حوّل منهم بأعداد كبيرة إلى أمريكا لاستخدامهم في النشاط الزراعي؛ ولتسيير هذه التدفقات التجارية والتوزيع، أنشئت شركات لهذا الغرض كشركة الهند الشرقية الهولندية سنة 1600م، وشركة الهند الشرقية البريطانية سنة 1602م في جنوب آسيا، وشركة الهند الغربية في أمريكا.²

وفي مرحلة ثانية وتمّة لتجسيد النهضة الأوربية، تولّدت في أوروبا الدولة القومية، كانت إنجلترا أوّلها. وفي ظل فكر اقتصادي جديد يتماشى مع النهضة والحرية متمثلاً في الفكر الاقتصادي الحر المتحرر من تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، تمّ إرساء أسس علم الاقتصاد السياسي. وجاءت الثورة الصناعية التي انطلقت من إنجلترا أيضاً التي اعتبرت مركزاً لتلك المرحلة باعتبارها أوّل دولة قومية اقتصادية صناعية.

انتشرت التجربة الإنجليزية في مختلف أرجاء أوروبا، التي تبنت الدولة القومية هيكلها، والصناعة هدفاً، والحرية سياسة اقتصادية؛ الأمر الذي يمكن تسميته بأوربية التجربة الإنجليزية. وشملت هذه الأوربية دول أمريكا التي بدأت تتحصّل على استقلالها الواحدة تلو الأخرى.

في ظلّ هذه النهضة، وفي بداية القرن التاسع عشر 1800م، شرعت أوروبا القومية الصناعية في المرحلة الثانية من الاستعمار، حيث استعمرت جل إفريقيا وآسيا³ - لتلعب هذه المستعمرات الدور الذي لعبته أمريكا المستعمرة من قبل، دور

1 - اعتبر آدم سميث هذه الاكتشافات أحد الأحداث الأكثر أهمية في التاريخ البشري كما كتب آدم سميث في 1776 " يعتبر كل من اكتشاف أمريكا واكتشاف الطريق البحري نحو الهند الشرقية حول رأس الرجاء الصالح الحدين الأكبر أهمية في تاريخ البشرية، حيث ترتب عليهما نتائج هامة حقاً، وما زال من غير الممكن خلال هذه المدة القصيرة التي تتراوح بين قرنين وثلاث قرون التي مرت منذ معرفة الأبعاد الخطيرة لآثارها، كما أنه ليس بوسع أيّ ذكاء بشري وأية حكمة أن تتنبأ بما هي أوجه الخير وما هي أوجه الشر الذي سوف ترتب على هذه الاكتشافات الفريدة من نوعها".

أنظر: هارالد نويرت، النظام العالمي الجديد ومشاكل العالم الثالث على ضوء اكتشاف أمريكا قبل 500 عام، (ترجمة عن الألمانية: محمد الزعبي، ممتاز كريدي)، بيروت: دار الطلبة للطباعة والنشر، 1996، ص: 25.

2 - عبد الحي زلوم، أزمة نظام الرأسمالية والعولمة في مازق، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2009، ص: 67؛ عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، مرجع سبق ذكره، ص: 72.

3 - لقد حكم الأوربيون سنة 1880 على ثلث العالم، وفي 1935 تحكّموا على 75% من سطح الأرض وعلى 80% من سكانها، حيث استعمروا أستراليا كاملة، و90% من إفريقيا، وأكثر من 50% من آسيا؛ أنظر: إبراهيم نافع، انفجار سبتمبر بين العولمة والأمركة، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2002، ص: 69-70.

الهامش الذي طَبَّق في أغلبه النظام الإقطاعي إلى أن استقلَّ-. وأخضعت بذلك العالم الإسلامي الممثل بالإمبراطورية العثمانية، التي تعرّضت لاستعمار جَلٍّ مجالها، لتحلَّ محلَّها دولة قومية قائمة على أسس علمانية ممثلة في تركيا منذ سنة 1924م¹.

- انطلقت بعد الحرب العالمية الثانية مرحلة جديدة من مراحل العولمة، ويمكن تلخيص ملامحها وتطوراتها فيما يلي:
- انتقال مركز النسق-عالم من أوروبا إلى أمريكا، وأضحى من الممكن التكلم عن أمركة النسق-عالم، حيث تولّت الولايات المتحدة الأمريكية الرّيادة. فهي الدولة المنتصرة في الحرب العالمية الثانية من دون تكلفة إعادة بناء، وهي المصنع الذي لم تدمره الحرب.
 - ابتداء من الحرب العالمية الأولى، غدا لفكرة العولمة و/أو قابلية العولمة أكثر قبولا، بدليل تسمية الحريين الأوربيين الأولى والثانية حريين عالميتين؛ إضافة إلى إنشاء مؤسّسات دولية كالأمم المتحدة لتجسيد عالمية المصير السياسي للعالم. كما أنشئت مؤسّسات اقتصادية لعالمية المصير الاقتصادي كصندوق النقد الدولي والبنك العالمي، وكذلك اتفاقية التجارة العامة، التي تحوّلت في نهاية التسعينيات القرن الماضي إلى منظّمة التجارة العالمية.
 - حصول الدول المستعمرة على استقلالها في الستينيات والسبعينيات. ودلّ هذا على إنهاء الاستعمار المباشر كعلاقة هيمنة في النسق-عالم الرأسمالي. وبعد انهيار النسق-عالم الاشتراكي سنة 1991م²، لعبت ولا زالت المؤسسات الدولية كصندوق النقد الدولي، والبنك العالمي، دور فتح أسواق الدول التي تلاقى صعوبة مالية بتنفيذ سياسات مفادها إعادة هيكلة الاقتصاد وفتحته بتحرير التجارة الخارجية والاستثمار الأجنبي، وبعبارة أخرى أضحت هذه المؤسسات مؤسّسات عولمة الاقتصاد-عالم الرأسمالي، عن طريق فتح الأسواق للشركات العالمية، ودمج اقتصادياتها في الاقتصاد-عالم الرأسمالي، كوسيلة هيمنة اقتصادية ذات شرعية دولية أو عالمية³.
 - تطوّرت فكرة القومية الوطنية إلى قومية جهوية وإقليمية، وتجنّدت في شكل تكتلات اقتصادية إقليمية، يعتبر الإتحاد الأوربي أكبرها وأجحها بعد الولايات الأمريكية المتحدة. وأصبحت مراكز الاقتصاد-عالم الرأسمالي المعولم ثلاثة أقطاب منذ التسعينيات من القرن الماضي، الولايات المتحدة وكندا، الإتحاد الأوربي ودول النمر الآسيوية واليابان، ولا زالت هذه الأقطاب تحقّق أكبر جزء من الاقتصاد العالمي، إذ حقّقت في 2008 ما يقارب 70% من الناتج العالمي، و75% من التجارة العالمية، و90% من العمليات المالية.

إلاّ أنّه وفي المقابل يشهد الاقتصاد-عالم الرأسمالي قوات اقتصادية جديدة - الاقتصاديات الناشئة - يتزايد ثقلها، فبالإضافة إلى النمر الآسيوية التي ظهرت في منتصف القرن الماضي كقوة اقتصادية نجد الصين التي اعتبرت ثاني أكبر دولة اقتصادية بعد الولايات المتحدة الأمريكية في 2011، كما يشهد العالم قوّة اقتصادية أخرى من أمريكا الجنوبية

1 - سقطت الخلافة الإسلامية بسقوط الخلافة العثمانية، الأمر الذي يمكن قراءته في اندثار العالم الإسلامي كوحدة متماسكة.

2 - ساد العالم خلال القرن العشرين وإلى غاية 1991 م فكرين اقتصاديين، نظامين اقتصاديين واجتماعيين، بل قل عالمين اقتصاديين، العالم الاشتراكي ومركزه الإتحاد السوفيتي، عالم استقطب الدول حديثة الاستقلال والتي استعمرت من طرف الدول الرأسمالية، قبل أن تحاول أن تشكل هي الأخرى علما مستقلا في إطار دول عدم الانحياز وتعاون جنوب-جنوب، والعالم الرأسمالي ومركزه الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت تلخص العلاقة بين العالمين في الحرب الباردة.

أغار في نهاية القرن العشرين الإتحاد السوفيتي فأصبحت دول العالم تدين بالرأسمالية، اعتبر فوكوياما في كتابه "نهاية التاريخ وآخر البشر" 1993 هذا الحدث نهاية التاريخ وآخر مرحلة من مراحل تطوّر البشرية، لتكوّن القرية الكوكبية الرأسمالية أو على الأقل بداية العولمة الراهنة.

3 - هذا وكما لا تزال الحروب تلعب دورها بالنسبة للاقتصاديات التي استعصت على المؤسسات الدولية فتح مجالها كما حدث في الحرب على أفغانستان باعتبارها حربا على الإرهاب الدولي والحرب على العراق، بل ولعلّ الحرب قد تأخذ شكلا جديدا، شكل الثورات العربية كما حدث لليبيا بشكل أكثر وضوحا، وكذلك الحرب على مالي، أنظر: عبد الحي زلوم، مرجع سبق ذكره، ص:74.

تتمثل في البرازيل الذي احتل المرتبة السادسة في نفس الترتيب وكذلك روسيا في المرتبة التاسعة والهند في المرتبة الحادية عشر¹، الأمر الذي قد يفتح مجال لاقتصاد-عالم متعدّد الأقطاب، أصبحت شساعة المجال الجغرافي فيه خاصية تميّز المركز.

- تلعب الشركات العالمية ثقلا في الاقتصاد العالمي إذ أنّها تمثّل نسبة معتبرة من فعالية الاقتصاد العالمي، كما أنّ 75% من أكبر 500 شركة عالمية القوّة الاقتصادية الفاعلة تتمركز في هذه الأقطاب الثلاثة. إنّ اعتبار هذه الشركات رأسمالا دوليا أو عالميا، كمتعامل اقتصادي فعّال في الاقتصاد العالمي، يجرّنا إلى ملاحظة انفصال رأس المال عن المجال الجغرافي، ربّما كمرحلة لانفصاله عن الدولة. فأصبح التكلم عن عولمة رأس المال، وعن رأسمال دون جنسية.

4 - محاولة في قراءة الاقتصاد-عالم الرأسمالي المعولم.

مرّ الاقتصاد-عالم الرأسمالي بمراحل عديدة منذ نشأته، حافظ من خلالها على صفات ثابتة أضحت من ميزاته ومعاله. وتغيّرت صفات أخرى تماشيا مع متطلّبات الحياة الاقتصادية والاجتماعية؛ تغيّرات حدثت إثر أحداث بطيئة أو حديثة.

فمن بين التغيّرات التي طرأت على الاقتصاد-عالم الرأسمالي نجد:

*تغيّر طبيعة عناصر، وحدات الاقتصاد-عالم، فمن مدينة أمة أو دولة مدينة، إلى دولة أمة ابتداء من القرن السابع عشر، إلى تجمّعات إقليمية جهوية بين الدول ابتداء من عشرينيات القرن العشرين، فتجمّعات ضمن التجمّعات الإقليمية في تسعينيات القرن الماضي².

كما تغيّرت أيضا هيكله رأس المال من تجّار تجارة طويلة المدى، مقاولون دوليون أو مصدرّون على حدّ تعبير آدم سميث إلى شركات تجارية احتكارية كشركة الهند الشرقية، لتصبح فيما بعد شركات استثمارية دولية، فشركات متعدّدة الجنسيات، فشركات عالمية.

*وتما تغيّر أيضا في الاقتصاد-عالم الرأسمالي أيضا، طبيعة العلاقات السائدة بين وحدات الاقتصاد-عالم، فبعدما كانت علاقات سياسية محضّة، أضحت اقتصادية أكثر فأكثر. كما أنّ أساس الاستقطاب أصبح هو الآخر اقتصاديا بعد تلاشي العلاقات الحربية. وفي السياق نفسه دائما تغيّرت معايير التقسيم الدولي للعمل في الاقتصاد-عالم الرأسمالي، بتغيّر خصائص الاقتصاد التي تعكس الملامح الظرفية لكلّ مرحلة من مراحل تطوّر الاقتصاد-عالم الرأسمالي.

* تغيّر حجم أو مجال الاقتصاد-عالم الرأسمالي ومنه محيطه، فبعدما كان هذا العالم الرأسمالي عالما يعيش بين أو مع عوالم أخرى-يمكن اعتبارها أنساقا أو اقتصادات-عوالم كالعالم الصيني والعالم الهندي والعالم الإسلامي، ثمّ في مرحلة أخرى أصبح يتعايش مع العالم الاشتراكي، أصبح في عصر العولمة فريدا يوشك أن يغطّي مجاله مجال الكوكب. إنّ هذه التغيّرات أو التطوّرات التي شهدتها الاقتصاد-عالم الرأسمالي لم تمس بعض الثوابت على غرار:

¹ - world economic forum, the Global competitiveness Report 2012-2013,p:382.

² - رابطة الآيبك، "التعاون الاقتصادي لآسيا والهادئ"، تأسس عام 1989، يضم 21 دولة مطّلة على المحيط الهادي. بما في ذلك دول النافتا والآسيان، تسعى لتشجيع التجارة الحرة والتعاون الاقتصادي في منطقة آسيا ودول المحيط الهادي؛ ليستحوذ على أكثر من نصف الإنتاج و التجارة العالميتين. وكذلك يمكن ذكر في نفس السياق توسع مجال الإتحاد الأوربي، سواء عن طريق ضم دول جديدة، أو عن طريق الشراكة الأورومتوسطية.

* دور وثقل الرأسمال طويل المدى، الدولي،... العالمي في العلاقات الدولية؛ وعلاقاته الخاصة مع الدولة - كعنصر مكوّن للاقتصاد-عالم - التي عبّر عنها بالتحالف رأسمال-دولة في كلّ مراحل تطوّر الاقتصاد-عالم الرأسمالي.

* ثبات ظاهرة التمرکز رغم اختلاف طبيعة المركز وعدده؛ فالمركز يستقطب رأس المال.

* ثبات ظاهرة تقسيم العمل الدولي المملّى من طرف المركز من أجل استخدام أمثل لموارد الاقتصاد-عالم.

إنّ العولمة كمرحلة من مراحل تطوّر الاقتصاد-عالم الرأسمالي لا تعتبر مرحلة شاذّة، تمسّ بالخصوصيات والصفات النابتة للاقتصاد-عالم الرأسمالي، لدرجة أنّ كل ميزة من ميزات العولمة الظاهرة تعتبر ميزة ثابتة لهذا الاقتصاد-عالم.

* فاققتصاد-عالم العولمة لا يزال يحتفظ بخاصية التمرکز، لكون الاقتصاد العالمي اليوم يعرف ثلاثة أقطاب، شرق آسيا: اليابان وآسيا الجنوبية الشرقية، أمريكا الشمالية، الإتحاد الأوروبي؛ وأقطاب ربّما في طريق الظهور تتمثّل في الاقتصاديات الناشئة المتمثّلة في الصين، البرازيل، روسيا والهند؛ هذا إذا ما فضلنا اعتبار أنّ طبيعة المركز لا تزال متمثّلة في الدول القومية.

* إنّ الشركات العالمية اليوم التي تعتبر قوّة وفعالية هذه المراكز، والتي تعتبر سوى الشكل الجديد لرأس المال الدولي القديم، ازدادت تحكّما في المجال المكاني والزمني وهذا بفضل التطوّرات التي شهدتها وسائل الاتصال. وبعبارة أخرى إن هذه الشركات ما هي إلّا رأس المال الدولي القديم في ثوب جديد، فأكبر الشركات العالمية اليوم من حيث حجم نشاطها، كانت كذلك في بداية القرن الماضي.¹

في الواقع وبالنظر إلى ثقل الشركات العالمية في الاقتصاد العالمي، وفي اقتصاديات الأقطاب الثلاثة وكذلك في الاقتصاديات الناشئة، نرى أنّ طبيعة المركز تتغير لتصبح هي الأخرى اقتصادية محضّة. فنجدها حينئذ في الشركات العالمية لكونها أقدر على تمثيل التمكّن الفعلي في المكان العالمي من الدولة القومية. أمّا الهامش، فهو الآخر يمكن القول بشأنه أنّه موضوع عولمة، فالعالم أصبح جله يشكّل هامش المركز الذي ينسلخ رويدا رويدا عن الدولة القومية.

قائمة المراجع:

1- باللغة العربية:

- نبيل رمزي، النظام الاقتصادي من وجهة سوسيو- تاريخية، دار الفكر الجامعي، بيروت، 2000.
- هارالد نويرت، النظام العالمي الجديد ومشاكل العالم الثالث على ضوء اكتشاف أمريكا قبل 500 عام، (ترجمة عن الألمانية: محمد الزعبي، ممتاز كريدي)، بيروت: دار الطلبة للطباعة والنشر، 1996.
- عبد الحي زلوم، أزمة نظام الرأسمالية والعولمة في مأزق، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان، 2009.

¹ - عبد الحي زلوم، مرجع سبق ذكره، ص؛ 70.

- عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، بيروت 1999.

- إبراهيم نافع، انفجار سبتمبر بين العولمة والأمركة، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2002.

2- باللغة الفرنسية:

- Adda Jacques, *la mondialisation de l'économie, t1.genèse*, 3^e édition, la découverte, Alger, 1997.
- Beaud Michel, *Économie, théorie, histoire essai de clarification*, Revue économique, Vol. 42, No. 2, Économie et histoire: Nouvelles approches (Mar.1991), pp. 155-172. <http://www.jstor.org/stable/3502002>
- Beaud Michel, *sur le systeme-monde et l'economie mondiale*. working paper
- Braude Fernand I, *civilisation matérielle, économie et capitalisme, XV^e-XVIII^e siècle T3 : le temps du monde*, 2^{eme}ed, Armand Colin, Paris, 1980.
- Braudel Fernand, *La dynamique du capitalisme*, Champs Flammarion, Paris, 1999.
- Durand Daniel, *La systémique*(Que sais-je), PUF, Paris, 1979.
- Rémy Herrera, *les théories du système mondial capitaliste*. working paper
- André Gunder Frank, "De quelles transitions et de quels modes de production s'agit-il dans le système mondial réel? Commentaire sur l'article de Wallerstein", (1990), in "Les classiques des sciences sociales", <http://classiques.uqac.ca/>.
- Beaud Michel, *Capitalisme, logiques sociales et dynamiques transformatrices*, In Bernard Chavance, Éric Magnin, Ramine Mohamed-Nejad, Jacques Sapir (dir.), *Capitalisme et socialisme en perspective. Évolution et transformation des systèmes économiques*, La Découverte, Paris, 1999.
- Lévy Jacques, *Espace-monde, mode d'emploi*, in Jacques Bidet et Jacques Texier (direction), *le nouveau système monde*, PUF, Paris, 1994, pp : 57-67.
- Lévy Jacques, *L'invention du monde*, Presses de Sciences Po | *Hors collection*, 2008, pages : 40 – 61.
- Parmentier Florent (Rapporteur), Zaki Laïdi et Hubert Védrine, *Penser le désordre mondial. De quels outils dispose-t-on ?*, ceri, 10 avril 2007.
- Kebabdjian Gérard, "l'économie monde" comme cadre d'analyse, working paper.
- Wallerstein Immanuel, *le système monde du XV siècle à nos jours, T1, capitalisme et économie-monde 1450.1640*, Paris : Flammarion, 1980.
- Wallerstein Immanuel, *L'Occident, le capitalisme et le système-monde moderne*, Sociologie et sociétés, vol. 22, n°1, 1990, pp : 15-52. <http://id.erudit.org/iderudit/001837ar>
- world economic forum, *the Global competitiveness Report 2012-2013*.